2014 05 06

دخلت هيلاري وجلست صامتة لبضع لحظات، ثم بدأت تقول: قلت في جلسة سابقة أني سأخبرك عن صديقتي البورمية أونغ سان سو كيي، ويسعدني كثيرًا أن أفعل ذلك الآن.

عندي بل وتشلسي للحديث معهما عن الأمور الشخصية المهمة ذات العلاقة بحياتنا، وثمة نساء كثيرات أستطيع اللغو معهن عن أولادنا وأحداث حياتنا اليومية، بل وأجدني مستمتعة حتى بالكلام معك، غير أن علي أن أعترف بأن ثمة شيئًا من العزلة في القمة؛ لا توجد عندي ولو صديقة واحدة على مستواي السياسي أستطيع طحن الكلام معها حول ظروف اليوم وأحداثه، أحيانًا يراودني الشك حول وجود أخريات مثلي في العالم كله، جل الأحداث اليومية مصنفة (سرية) وأنا ملزمة أخلاقيًّا بكتمانها، بعدم البوح بها، إنه عبء ثقيل يصعب حمله فرديًّا، فعالم وزير الخارجية عالم مغلق، عالم يصعب فهمه ما لم تكوني منخرطة فيه بعمق، أقرب مساعداتي هوما عابدين التي كانت ذراعي اليمنى عمليًّا، أسهمت في سد الفراغ؛ كانت تساعد في التخطيط للسياسة، تُعِدُّني للمناسبات، بل وحتى كانت تحمل حقائبي عند الضرورة.

obeikandl.com

غير أن الإحساس بذلك النوع من الحميمية التي كنت بحاجة إليها كان صعبًا مع إحدى الموظفات؛ توجد أمور لم تكن حتى هي قادرة على معرفتها، ولم تكن على المستوى نفسه من الترخيص الأمني.

ومع أن باراك رائع على صعيد الكلام معه، فإنه نادر التوفر بالنسبة إليَّ؛ إضافة إلى أنه رجل، يجب أن أقر بأن هناك شيئًا يخص صديقة حميمة أنا بحاجة إليها لأشعر بأنني في أفضل حالاتي، على الرغم من توقي إلى التفهم من قبل ند أنثى، فإنني أقلعت عن البحث عن واحدة، وأدركت في وقت مبكر جدًّا من حياتي السياسية أن الوحدة هي الثمن الذي كان سيتعين علي دفعه إذا ما صعدت إلى قمة عالم السياسة.

فهمتها جيدًا، أنا أيضًا مشروع فردي، ولأغراض السرية والخصوصية، لا أستطيع مناقشة أحوال مرضاي أو زبائني مع أي شخص، لم يكن ثمة أي إنسان أستطيع إطلاعه على حقيقة أن أقوى نساء العالم مريضتي؛ إحدى زبائني، مع أنه ربما كان يحلو لي أن أعلن ذلك صراخًا على الأسطح.

وتابعت هيلاري تقول: تغير الأمر أبديًّا بتاريخ الأول من أيلول/سبتمبر عام 2011م، على شاطئ بحيرة إينيا الرحبة والمجيدة مقابل البيت السابق للجنرال ني وين؛ ذلك الدكتاتور عديم الرحمة الذي حكم البلاد بقبضة حديدية مدة نصف قرن، مباشرة ثمة دارة (فيلا) من طبقتين تتوسط حديقة بائسة، مهملة، مغطاة بالأعشاب والحشائش غير المحصودة، في زيارتنا الرسمية إلى المكان اقتربنا من الدارة المشهورة عالميًّا من خلال الصور، ومثل غيرها من مباني المنطقة كانت الدارة في حالة مزرية جراء الافتقار إلى الصيانة؛ جدرانها الكلسية كانت مطلية بالسواد العفن، وبدت كما لو كانت غير مؤهلة للصمود سنة أخرى، كان البيت محاطًا بسياج أزرق عليه رسوم خضراء فرحة لطواويس راقصة مرسومة على أقراص بيضاء بسيطة.

كان البيت الذي أصبح رمز الحركة الديمقراطية في بورما، منزل آونغ سان سو كيي، المعارضة السياسية ذات الأعوام الأربعة والخمسين من العمر، الفائزة بجائزة نوبل، وصاحبة الشهرة العالمية، التي تحمل على نحو شبه دائم لقب (السيدة)، وهو لقب أضفاه عليها شعب بورما الذي يتحاشى ذكر اسمها الكامل خوفًا من انتقام النظام العسكري، نظام الـ أس إل أو آر سي (SLORC) (مجلس استعادة قانون الدولة ونظامها).

وصلنا إلى رانغون مع غروب الشمس خلف الباغودا (الهيكل) البوذي الأقدم في العالم، بطلائه الذهبي الموشى بآلاف قطع الماس والياقوت، كان يضيء السماء في أكثر الليالي حلكة، وبوصفي ضيفة رسمية ذات شأن، سُمح لي بقرع واحد من الأجراس المجيدة التي يزن كل منها أربعين طنًّا، فتردد الصدى عبر الأرياف المحيطة. أحيانًا عندما يهجرني النوم، أصغي إلى ألحان أجراس الباغودا المجيدة في ذاكرتي؛ ألحان ستبقى معي حتى أفارق الحياة، يا لها من بداية رحبة لتجربة حياتية! تجربة العمر! أحسست بنشوة محلقة غير مألوفة بالنسبة إلي أنا التي قضيت أيامي ذائبة في بوتقة معاشرة أكثر الناس أهمية في العالم، في ذلك المساء كان مبرمجًا أن ألتقي امرأة كانت بطلة بنظري منذ سنوات عديدة.

ما إن دخلت بيت (السيدة) في دارة شاطئ البحيرة برانغون، حيث بقيت سجينة المنزل مدة ست سنوات، حتى استعرضت غرفة المعيشة الكبيرة التي بدت شبه فارغة، في زاوية قصية لا تكاد تُرى كانت ثمة امرأة مع وردة في ضفائرها الداكنة الطويلة وخصلة شعر على جبهتها، شعرت مع اقترابها مني بأسر جمالها الأنيق، اعتقدت أن ملامحها دقيقة مثل حجر كريم منقوش، ما من صورة أو وصف نجحت في التقاط جوهرها الفريد الذي كان يتجلى فور لقائها.

غصـن أزهـار صفـراء كان متدليًّا من كعكة شـعرها إلى أسـفل عنقها، ومع أنهـا مثلـي تقريبًا من حيث طول القامة، نحو خمس أقدام وأربع بوصات، فإنها متمتعة بالحضور المهيمن لامرأة أطول قامة، يجب أن تكون مثلي قد أُعجبت بما رأتـه؛ لأننـا تبادلنا التحية أولًا بابتسـامة مشـتركة، توغلـت في العمق بمقدار ما يمكن لأي ابتسامة أن تتوغل، وأدركت على الفور أنني كنت قد اهتديت إلى ندي؛ نظيرتي، في هذه الحركية الناشـطة الشـهيرة، وأن من شأنها أن تغدو الصديقة التي طالما بحثت عنها، ثم تبادلنا التحية بقبلة على الخد وعناق دافئ، وانزلقنا إلى حديث ميسر كما لو كنا نعرف بعضنا منذ سنوات.

ومـع أننـا لم نكـن قـد تحدثنا سـوى مـرة واحـدة هاتفيًّـا، فـإن كلًّا منا كان يعرف سلفًا أشياء كثيرة عن الأخرى، كانت سو كيي قد قرأت سيرتينا؛ بلِ وأنا، الذاتيتين، وأنا كنت قد شـاهدت فلم السـيدة عن حياتها، قضينا أكثر من ثلاث سـاعات ونحـن مسـتغرقتين في الـكلام عـن حياتينا، كما عـن آمالنـا وأحلامنا بالنسـبة إلى نفسـينا كما بالنسـبة إلى بلدينا، طلبتْ سـو مني أن أبين لمعارضي التعامل مع بورما في الولايات المتحدة بسبب نظامها الدكتاتوري الفظ أن الشعب البورمي نفسه تواق للديمقراطية كما للعلاقات الوثيقة مع بلدنا.

أصبحنـا أفضل صديقتين، مـن دون إضاعة وقت ورحنا نتحدث عن أمور لم يكـن في العالم أحد سـوانا يعرفهـا، قدمت لها مجموعة نـادرة وقيمة من الكتب من تأليف وتوقيع بطلة أخرى بنظري، أعني إليانور روزفلت، وأهدتني سو قلادة فضية كانت قد صنعتها بيدها، وضعتها مباشـرة واثقة من أنني سـأظل أعدها أحد كنوز حياتي العظيمة.

وفيما كنا– بعد الغداء– نمشي في الحديقة يدًا بيد، ظل كلبها يرقص حولنا فرحًـا، كما لو كان شـاعرًا بـأن حدثًا تاريخيًّا يطرأ على حيـاة صاحبته، لم تكن الحديقـة الآن أكـثر مـن كومة وحل؛ لأن إطلاق سـراح سـو من السـجن كان قد تزامـن مع أوج الفصل الموسـمي حين تقلب الأمطار الغزيرة مسـاحات شـاسـعة

من الأرياف إلى عالم مائي يلفه الضباب، عالم ضبابي ممتد من شواطئ بحر آندامان إلى سفوح الهيمالايا، راحت سو تفسر معتذرة أن حديقتها كانت جميلة جدًّا يوم اعتقالها، كانت حافلة بمساكب ساحرة من زنبق المادونا، والفرنجيباني الأرجواني، والغاردينيا الصفراء مع الياسمين، كانت تعشق العمل في الحديقة؛ كان ذلك أحد أسباب فرحها العظيم، إلا أنه كان يكلف مبالغ كبيرة من المال، ولم تعد قادرة على توفيره. تحدثت بلكنة بريطانية رشيقة كانت قد اكتسبتها بجامعة اكسفورد.

أحيانًا كانت تعجز حتى عن دفع ثمن الطعام؛ تعرضت لسوء تغذية، تساقط شعرها، بالكاد كانت تستطيع الخروج من الفراش زحفًا، خافت أن تقضي نحبها جراء توقف قلبها، ضعف بصرها، التهبت فقراتها، تدهور وضع عمودها الفقري، ما أدى إلى جعل الحركة مؤلمة. بعد إطلاعي على هذا كله، لاذت بالصمت، منتظرة استيعابي لما قالته على ما بدا، ثم أشارت إلى رأسها وقالت بكبرياء: «غير أني لم أسمح لهم قط بالوصول إلى هنا، حيث تكمن الأهمية كلها».

طوال حياتها ظلت سو مسكونة بهاجس أبيها؛ الجنرال العظيم آونغ سان، الذي اغتيل حين كانت في الثانية من العمر، خسارة حددت مسار حياتها؛ لأنها شعرت بأنها ملزمة أن تعيش حياته نيابة عنه هو، عنها هي، وكرمى لعين بلدهما. كان آونغ سان ثوريًّا بورميًّا، وطنيًّا، ومؤسس الجيش البورمي الحديث، الذي عُدَّ الأب المؤسس لبورما اليوم الحديثة، كان الرجل العظيم صاحب الفضل في استقلال بورما عن الحكم الاستعماري البريطاني، إلا أنه اغتيل قبل الاستقلال بستة أشهر.

تصوري أن تفقدي أباك في مثل هذه السن الصغيرة! كنت امرأة متوسطة العمر حين رحل أبي، إلا أني كنت متمتعة بنعمة وجوده، أقله وأنا في مرحلة النمو، كان صاحب التأثير الأكبر في حياتي، ومازلت أحزن عليه كل يوم، كيف

نجحت سو في إنجاز كل ما أنجزته وهي محرومة تمامًا من نعمة الأب؟! أمر لا أستطيع فهمه، أنا واثقة من أنني ما كنت قد وصلت إلى ما وصلت إليه لولا تأثير أبي إبان سنوات نشأتي.

قدرت أنها كانت ستفعل، غير أني لم أبح بذلك. علاوة على ذلك، من منا يستطيع أن يعرف مثل هذه الأمور يقينًا؟

قالت سو: «على الدوام بقيت شاعرة بأني قريبة من أبي، لم يغب عن ذهني قط أنه كان يريدني أن أفعل شيئًا لبلدي». لدى عودتها إلى بورما، رأت حياة السياسة لا تناسبها، إلا أن الشعب كان يطالب بالديمقراطية، وشعرت بأنها ملزمة بأن تأخذ مكان أبيها.

زميلة لسو قالت لي أنها تشبه أباها كثيرًا؛ كانت عديمة الخبرة في السياسة عند عودتها إلى بورما، إلا أنها موهوبة مثل أبيها.

كنا نرنو بإكبار إلى أونغ سان سو كيي التي كانت تخاطب حشدًا مطوفًا للمكان، أتذكر كلامها بوضوح، قالت: «علينا أن نتجنب الأفكار المتطرفة، فكروا قبل أن تقدموا على أي حركة، فالنضال في سبيل حقوق الإنسان والديمقراطية في بورما كفاح من أجل الحياة والكرامة، إنها معركة شاملة لسائر تطلعاتنا السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية». وحين أنهت سو كلامها، بقي الحشد صامتًا للحظة طويلة، ثم انفجر مصفقًا تصفيقًا دام عشر دقائق كاملة.

حانت لحظة إنهاء سهرتي مع صديقتي؛ أولًا تبادلنا كلمات الوداع السياسي، عبرت سو عن شكر بلدنا على مساعداته كلها، وعلى سعيه للتواصل مع الحكومة البورمية، ثم انتقلنا إلى عبارات وداعنا الشخصي كما إلى كل ما عناه اللقاء بالنسبة إلى كلتينا - عبارة سأحفظها في قلبي إلى الأبد، ومع شروعنا في الافتراق على مضض، تعانقنا بدفء واتفقنا على التواصل المتكرر هاتفيًّا وإلكترونيًّا، وهو ما فعلناه، وحين لوحنا مودعتين للمرة الأخيرة، اغرورقت

obeikandi.com

عينـاي بالدمـع ولاحظـت أن عيني سـو أيضًا كانتا دامعتين، شـعرت كما لو كنت أغادر أختًا مفقودة منذ زمن طويل.

نفوذ سو في بورما يوازن الدعم المتأرجح لحقوق الإنسان بوعد الدعم للنظام المثير للريبة سابقًا، وقد أدى إلى انفتاح ذلك البلد على العالم للمرة الأولى منذ عقـود، يسـعدني أن أخـبرك- يا دكتورة- أن أونغ سـان سـو كيي هـي الآن حرة وحزبها يشـارك بنشاط وفاعلية في الجهود الإصلاحية المبذولة في بورما، نبقى علـى صلـة كمـا تواعدنـا، ولا يمر يوم واحـد مـن دون أن أفتقدها، وأنا متشـوقة لرؤيتها وهي في زيارة للولايات المتحدة.

كلتانـا؛ هيلاري وأنا، كنا شـديدتي الانفعال والتأثر حتـى بتنا عاجزتين عن الكلام، قامت وغادرت من دون أن تنبس أي منا ببنت شفة.